الفصل الخامس

الصدق السيكولوجي

الفصل الخامس

الصدق السيكولوجي

لقد ظل علم النفس فرعاً من الفلسفة العقلية التأملية أكثر من مائتى عام بعد وفاة الفيلسوف الفرنسي «رينيه ديكارت» - حيث أن موضوعه قد تحدد، ولكن طريقته فى البحث لم تزل تعتمد على طريقة الفلسفة فى البحث أى النظر والتأمل والبرهان والجدل فى قضايا ذات طابع فلسفى صريح ما برحت لاصقة بعلم النفس منذ القدم، مثل «ما الطبيعة القصوى للعقل»، «هل العالم الخارجى عالم واقعى أم من خلق الخيال Imagination»، «هل للإنسان إرادة حرة؟» وقد كان الخلاف على هذه القضايا كبيراً بين الباحثين، لأن النظر والتأمل دون سند من الطرق العلمية للملاحظة والتجريب يؤدى حتماً إلي الخلاف»[1].

إلا أن سانتيانا يرى أن الفلسفة الحديثة بدون شك فى ذلك، قد قامت بالنقد السيكولوجى لكل من العلم والحس المشترك، وذلك على أساس المفاهيم السيكولوجية، وتوصلت من نقدها إلى أن كل من الحقائق المفترضة ليست سوى أفكار كوّنها العقل البشرى وفقا لمبادئه، ولا وجود لها أبعد من العقل[2]. إلا أن هذا النقد السيكولوجى - كما يقول سانتيانا لا يمكن أن يستمر على الدوام إلى نفى وجود العقل البشرى ذاته، وما ينتج عنه من أفكار متعاقبة، وكذلك الطرق أو العادات التى يتبعها فى التفسير، فإنكار العقل يعد انتحاراً، لأن المعرفة إنما تدور داخل إطار العالم السيكولوجى[3].

(1) د/ أحمد عزت راجح: أصول علم النفس، دار المعارف، القاهرة، 1999، ص43.

(2) G. Santayana: Three proofs of Realism, in: Essays in Critical Realism edited by. Critical Realism Philosophers, Macmillan and Co. Limited, London, 1920, p. 173.

(3) Ibid: P. 173

ومن الأدلة التى تؤكد ذلك أن سانتيانا يعلى دائماً من شأن العقل ووظيفته فى الحياة، وعلاوة على ذلك يرى فيلسوفنا أن الروح الإنسانية قد تكتنفها الوساوس الحيوانية animal obsessions من جميع الجهات، إلا أن العقل البشرى يستطيع من خلالها أن يقوم بعمليات الاسترجاعRetain والمقارنة وتحليل انطباعتها الحسية، تاركاً صيرورة الوجود تنطلق بأقصى سرعتها لتحقيق ما تصبو إليه من غايات[1]. كما أنه لا يوجد أساس لانكار العلاقة بين العقل والفن، ومع ذلك فالعقل يعد أفضل من المادةmatter، وهذا الحكم نهائى لأن العقل فقط هو القادر على الحكم، ولذلك كانت صفة الانتباه بالنسبة للمادة صفة اختيارية، وذلك لأن وظيفة المادة تغذية العقل[2]. ووظيفة العقل هى السيطرة على التجربة، فالعقل بمثابة انفتاح واضح وجلى نحو الانطباعات الجديدة التى لا تقل أهمية عن هذه الغاية من كونه معبرا عن امتلاك المبادئ التى من خلالها يتم تفسير الانطباعات الجديدة[3]. فليس هناك شيئاً يكون أكثر طبيعية أو أكثر ملائمة مع كل هذه المتشابهات التجريبية من كون الحيوانات تشعر وتفكر[4].

والواقع يشير إلى أن دراسات علماء النفس تقوم على أساس موضوعى سواء أكانت هذه الدراسات حسية أم تصورية، فإنه فى كلتا الحالتين يتصل بمجالات جمالية أو أخلاقية مختلفة، ولا يقوم فيها الإيمان الحيوانى بدور الوسيط ولا يمكن أن ينقل بنفسه معرفة الصدق. ومع ذلك فإن الحدس الذى هو إدراك بسيط لواقعية الأشياء يأتى من الماهيات وليس من الأشياء، لأنه يلاحظ ما يقع بالفعل فقط ويدخل فى دائرة انتباه الإنسان[5]. حيث يعمل الحدس على كبح جماح ذلك الإيمان الحيوانى الذى يتضمن فى ذاته الخوف أو الدافع الفيزيقى، فعندما يتم توضيح المعلومات والبيانات وتأخذ شكل الواقعية ويكون تحقيقها فعلياً فإن المعلومات فى هذه الحالة تمثل الماهيات[6].

بناء على ما تقدم يرى سانتيانا أن الحدس المثير ينبع من العواطف والانفعالات، أى أنه

(1) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.440.
(2) Ibid: p. 441.
(3) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, p.204.
(4) Ibid: p. 205.
(5) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, pp. 437, 438.
(6) Ibid: p.438.

يأتى عن طريق الحدث. والإنسان ربما يكون على دراية ووعى بانفعالاته وعواطفه، لذلك فهو يثار بشكل عجيب، ويتأثر بكل شيء. ولكن هذه العواطف ذاتها عبارة عن قوة آلية طبيعية تركت بدون رابط فى داخله حتى أصبحت أعمق من إدراكه لها، فإذا حاول الإنسان أن يضع عواطفه أو انفعالاته فى كلمات محددة أو إدراك طبيعتها الملائمة، فإنه فى هذه الحالة ينساق نحو روايات درامية فى معنى أبعد ما يكون عن الانفعالات الفعلية، كما ينساق إلى نوع من الأساطير أو ينساق إلى المنطق من خلال عبارة مجازية منطقية، حيث يرسم ويحدد بصورة خيالية حركة هذه السيطرة الأسطورية التى تعوقه وتسبب له الكثير من المشكلات، فإن الصدق هنا كما يقول سانتيانا هو الذى يوجه انفعالاته وعواطفه، كما أنه القادر على إدراك هذه السيطرة الأسطورية[1].

ولذلك يرى سانتيانا أن هناك الكثير من الصدق حتى فى إحساسنا عنه، فمن الممكن التوقع بأن الأفكار ليست فقط نفسية أو تاريخية الصدق، لأن وصف هذه الأفكار قد يكون نشأ فعلاً فى العقل البشرى، ولكن الصدق الصورى فى وصف فكرة مقبولة يختلف عن تلك التى كانت قد صيغت فى أول صدفة فى التعبير، والتى يمكن أن تستخدم لتحليل الفكرة و إبراز أوجه التشابه الأساسية[2]. فقد أخبرنا بعض علماء النفس - أنه على الرغم من أن نسق الحوادث الديناميكى ليس نسقاً رياضياً حقيقياً، فإنه ينبغى العمل على تنمية التصورات الرياضية لأنها مفيدة فى مجال الفنون العملية، ولكن التساؤل هنا كما يقول سانتيانا - كيف يمكن أن تكون هذه التصورات الحسابية مفيدة فى حين تكتنفها التصورات الخاطئة فى بعض جوانبها؟ وكيف تكون التصورات خاطئة فى حين أنها تصف النظام المؤثر فى الطبيعة التى تتحكم فى وجودنا وصحتنا وقوتنا الكلامية والتثقيفية بشكل أساسى؟[3].

يرى سانتيانا أنه إذا اكتسبت نظريات الحساب والهندسة ميزة القدرة على تنمية التصورات، فإنها تثبت دقتها وهيمنتها على العقل والخبرة، لأنها فى تجريداتها تصبح هى المقياس المؤكد لقياس الأشياء المادية[4].

(1) Ibid: p. 467.
(2) Ibid: p. 426.
(3) Ibid: P. 442.
(4) Ibid: P. 442.

ولذلك يقوم الخيال بدور هام في مجال إثبات الصدق - حيث به نعقد المقارنات Comparisons ونتصور به البدائل Alternatives. ونأسف لأنها لم تتحقق فى الواقع، وتصبح مصدر إلهام. حيث يملك الخيال القدرة على إدانة العالم كله بالفساد ووصفه بالكذب والخداع. وعلى النقيض منه يقوم الصدق بنشر ضوئه الساطع و إقرار ما يجب أن يكون، فكل الأخطاء والأوهام Illusions والمغالطات المرضية، والأساطير الشعرية الموجودة داخل العقل الإنسانى تأتينا فى غياب الماهية[1].

ولقد قام سانتيانا بالتفرقة بين علم النفس التقليدى (الأدبى) Literary psychology وعلم النفس العلمى. وهى فى الحقيقة تفرقة عميقة بين ما هو ديناميكى وما هو ظاهر، فمن الواضح أن فيلسوف الظواهر لا يرى مثل هذا التمييز لأنه لا يوجد شيء بالنسبة إليه إلا ما هو موجود على السطح فى الظاهر، وكذلك يرجع إلى عدم الربط بين الأحداث التى يمكن أن تكون عرضية إلا عن طريق الصدفة[2]. غير أن تمييز سانتيانا يتضمن مبادئ أخرى من وجهة نظره، حيث يؤكد فيلسوفنا على أن الأحداث الذهنية لها أساس فيزيقى تستند إليه، ومع ذلك فإن البيولوجيا (علم الحياة) وعلم نفس السلوك كليهما لا يستطيع أن يكتشف بطريقة مباشرة خاصية الشعور أو حتى وجوده[3]. أما علم النفس الأدبى فهو عبارة عن أسلوب للحديث عن هذه العمليات التى لا يمكن أن ندركها أو نفهمها فى تكوينها بالمرة، ولكن يمكن أن نفهمها جيدا من خلال معناها - أعنى من خلال ارتباطهم أو علاقاتهم الأخلاقية بعضهم ببعض، ولذلك فإن فهم و إدراك الصلة القوية بين الدافع a motive والحدث action ليس عبارة عن علم النفس الأدبى، ولكنه عبارة عن المعرفة السلوكية لهذه الطبيعة البشرية[4].

لقد نظر سانتيانا إلى الفلسفة التقليدية وعلم النفس الأدبى على أساس أنهما عبارة عن فوضى للعلم الجدلى فى علاقته بالعلم الطبيعى. حيث إن العلم الطبيعى يستخدم العلاقات الجدلية بشكل صحيح كمعنى لهذه النهاية، ولكن لا يمكن أن تكون كبديل للعلاقة الصورية للصدق المادى. فما الذى يحدث إذا تم وضع وقائع الطبيعة وحقائق العلم كمعنى ووسيلة لنهاية العلم

(1) Ibid: P. 442.
(2) G. Santayana: Apologia pro Menta sua. op.cit, P. 524.
(3) Ibid: p.524.
(4) Ibid: P.505.

الجدلى؟ ما الذى يحدث عندما تحاول الفلسفة وعلم النفس أن تؤسس ماديات الواقع أو الوجود من خلال علاقة الفكر المجرد أو الجدل المنطقى بدون أن تستخدم الملاحظة أو دلائل التجربة العلمية؟

إن النتيجة المتوقعة عند سانتيانا هى الحصول على علم زائف أو ميتافيزيقا أو الحصول على علم النفس الأدبى[1].

كما قام سانتيانا بنقد النظرية المثالية المتعالية، وذلك لنبذها النظرية الواقعية فى مجال الخبرة الإنسانية - والتى يوليها أهمية كبرى،أو حتى فى التاريخ الكلى، مما يجعل وجود الحقائق هو نفس الوجود السائد فى المثالية التجريبية Empirical Idealism، والتى تنتسب إليها المعرفة الجوهرية، حيث تعبر هذه الحقائق عن مبادئ إنسانية بذاتها تخضع للمنفعة أو عن الدوافع المنطقية والأهداف الأخلاقية وسائر الموضوعات ذات الصلة بالعالم غير الواقعى[2].

وينتهي سانتيانا فى نظريته الواقعية عن الصدق السيكولوجى إلى أن الصدق يصبح وسيلة من وسائل النجاح فى واحدة من أهم مجالات الحياة، ألا وهو التكيف المتسم بالذكاء Intelligent مع ظروف الحياة المختلفة المحيطة بالإنسان، وهذا التكيف هو تكيف حقيقى وعلامته القدرة على التنبؤ، وعلى التمسك بالخيال العلمى الصحيح، وعلى إظهار العواطف ذات الصلة الوثيقة بالحقائق، بل وأبعد من ذلك حيث يصبح وعى الإنسان أكثر من مجرد إحساس، أو ألم حاد يعتريه لذلك وجب على الإنسان أن يتطلع دائماً إلى امتلاك الصدق[3].

(1) Guy W. Stroh: American philosophy from Edwards to Deweys, op.cit, pp.202.203.

(2) G. Santayana: Three proofs of Realism, op.cit, P.125.

(3) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, P.446.